

الإسلام

وتحديات الحياة العصرية

حسن صعب

لماذا نغنى نحن بأثارة هذا الموضوع الاسلامي الاساسي ؟ اليس موضوعا دينيا ؟ وما دام كذلك ، فما هو شأن اهل الدنيا به ؟ ولماذا لا نتركه لرجال الدين وحدهم ؟ الانه موضوع مصري يعنيننا جميعا ، او لان البحث الفكري او الاجتهاد العقلي مفتوح في الاسلام للجميع ، لا فرق في ذلك بين علماء الدنيا وعلماء الدين ؟ ان الاسلام ، كما وصفه المستشرق الانكليزي غيب ، « هو ديمقراطية روحية مطلقة » . والبحث والتفكير فيه واجب على كل فرد وجوب العبادة . بل ان المفكر في محرابه ، والعالم في مختبره ، متقربان الى الله بالتأمل والبحث . تقرب العابد اليه في صومه وصلاته . واذا فهم الاسلام بحقيقته هذه ، كان دائما طليعة حركة الفكر ومقدمة حركة الحضارة .

ثم ان الاسلام هو صدق مع الله ومع النفس ومع سائر البشر . والانسان الصادق لا يدع سؤالا واحدا لا يسأله ليحاول الاجابة عليه . وتكفي مطالعة القرآن من جديد لاكتشاف الحوار الازلي فيه بين الله والانسان . والثقافة هي هذا الحوار المتواصل بين الانسان وخالقه ، وبين الانسان واخيه الانسان ، وبين الانسان والطبيعة . وقد بقي الاسلام ثقافة خالقة ما دام محاورا . وتوقف عن الخلق منذ فرض عليه وقف الحوار ووقف الاجتهاد . وجهاد الاسلام في العصر الحديث لم يكن جهادا لاستعادة الحرية فحسب ، بل كان ايضا جهادا لمعاودة حركة الخلق ، اي لاستئناف الحوار ، وطلب الاجتهاد .

ومعاودة الاسلام هذه الحركة رهينة بنظرته الجديدة لنفسه ، ونظرته المتجددة لتحديات الحياة العصرية له . ونحن نتجدد مع تجدد هاتين النظرتين ونتجدد مع تجدد الاسئلة التي تثيرها ، ونحاول الاجابة عليها في كل يوم بل في كل لحظة . فاذا توقفنا عن التساؤل آذنت نهايتنا .

ونحن نطرح موضوعنا بصدق لا محدود ومعرفة محدودة . ونثيره منطلقين من موقف منهجي تلمسناه من الآية الكريمة : « كل شيء هالك الا وجهه » . ونفهم منها ان كل شيء قابل للتغيير الا ذات الله وحقيقته وكلمته العلوية المطلقة . وما بنا من علوي وروحي فمن خير الله المطلق ، وما بنا من متغير فمن انفسنا ومن حولنا الطبيعي .

وننتقل من هذا الموقف المنهجي محاولين ان نبسط لانفسنا موضوعا هو في غاية

التعقيد . لان تحديات الحياة العصرية للاسلام تحديات متعددة الجوانب ، ومتنوعة الوجوه .
فهي تحديات تاريخية ، وعقائدية ، وفلسفية ، وعلمية ، وجمالية ، وخلقية . ومأساة الحياة
الاسلامية اليوم هي مأساة الردود الاسلامية على هذه التحديات .

والردود متعددة تعدد التحديات ، وتعدد الاحوال التي فاجأت بها الحياة العصرية دار
الاسلام . فللحياة العصرية ، التي انطلقت من اوربا الغربية في القرن الخامس عشر ، وسرت
منها الى جميع انحاء العالم ، ظواهر مختلفة ، ولكن لها روحا واحدة : هي روح التحدي
لكل ما هو قديم . وللإسلام ظواهر مختلفة ، ولكن له في العصر الحديث روحا واحدة :
وهي روح الاستغراب تجاه الجديد . ومعضلة الاسلام العصرية الاولى ، هي معضلة الثقة
فيما هو جديد ، واستساغته ، والتكون على ضوئه تكونا جديدا . وقابلية الاسلام للحياة
رهينة بقدرته على هذا التجدد الكياني . فاذا اظهر الاسلام هذه الطاقة التجديدية ، بقي ،
وظل له دوره الخلاق في تجديد الحياة الانسانية ، وتقدم الفكر الانساني . وان لم يظهرها
تجاوزته الحياة ، واصبح تراثا من تراثات الامس بدل ان يكون حقيقة حية من حقائق
اليوم ، او حركة « خلاقة » من حركات الغد .

وجوهر الاسلام ، كجوهر كل دين سماوي ، هو الاعتقاد بحقيقة ازلية تملو حركة
الزمان بين الامس واليوم والغد . فالزمان الاسلامي زمان روحي ، ليس له اول وليس له
آخر . وهذا هو المعنى الحقيقي للاعتقاد بالله ، وبخلود الروح ، وباليوم الآخر . فالله ، لا
الزمان ، هو الاول والآخر . والله السرمدي هو اكبر من كل شيء ، تسع كينونته اي
رحمته كل شيء ، ويضيق عنها كل شيء . وله المثل الاعلى المحب في السموات والارض .
وهو فريد : « ليس كمثله شيء » . وكل الظواهر المتغيرة امام اعيننا تعبيرات حسية
خادعة عن قدرته الخالقة . فهو « خالق كل شيء » . وكل شيء يتغير ويصير ، وهو كائن
لا يصير ولا يتغير ابداً . « واليه المصير » .

والروح العصرية هي روح هذا التغير . والروح الاسلامية خاصة ، والروح الدينية
عامة ، هي روح الغيب الذي لا يتغير ابداً . الروح الاسلامية كينونة ، والروح العصرية
صيورة . وهذه الروح منطلقة في اكتشاف قوانين الصيرورة والتغير ، متجاهلة ما لا يتغير ،
جاحدة له او ساخرة منه . وليس هذا التحدي العاتي يجديد كل الجدة في تاريخ الاسلام او
تاريخ التدين . فالقرآن يتبنا بان الدهريين تصدوا لمحمد معلنين ان لا شيء الا الدهر ، وانه
هو وحده الذي يهلك ويحيي ويميت . ويخبرنا القرآن ايضا ان الطبيعيين جابهوا ابراهيم
بالنار والقمر والشمس ، فلما رآها تأفل ، اي تبدل بين ظلمة ونور ، قال : اني
لا احب الآفلين .

ولهؤلاء الدهريين والطبيين اسماء اخرى قديمة وجديدة ، فهم حينما ماديون ، او

حسيون ، او زمانيون ، او تاريخيون ، او تطورون ، او تقدميون ، او دياكتيكيون ، او ذرائعيون ، او وجوديون ، او ظواهريون ، او مناطقية يجابيون : ولكنهم يستوون جميعا في التوقف عند ظواهر التغير ، ومعالم الوجود ، ونواميس الحركة ، والتكرار للذات او الجوهر الذي يقوم وراء هذا التغير ، ويظل كما هو كائنا وموجودا بذاته وان تغير كل شيء .

فالايان بالله هو في جوهره رؤيا هذا الحق العلوي ، وتسليم بفعله في كل ما هو موجود . فهو تحرر من الظاهر والتغير والمتعدد ، وتحرر من الزمان والمكان ، وتسليم بالمطلق الذي لا يحده شيء . وما دامت هذه الرؤيا ملء النفس ، ونور الحياة ، لم يعد يرى الانسان ذاته الا من خلال الذات الفريدة المطلقة ، اي من خلال الله ، فيعبده وكأنه يراه ؛ فان لم يكن يراه ، فان الله يراه .

وهذه النزعة الى التحرر من النسبي والتغير والمتعدد ، المنبثقة من الشوق الى المطلق والواحد الازلي ، هي نزعة الروح الاسلامية ، وميزة الروح السامية ، التي تعبر عنها الرسالات التوحيدية الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام . وهي في نظر الاسلام نزعة طبيعية للروح الانسانية . وهي تفسر قوله تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وكان الاسلام جاء كثورة روحية جديدة ، تؤكد الايمان بالوحدانية ، وتحررها من اية شائبة اعترتها . ويبدو هذا التأكيد في ركن الاسلام الاول وقاعدته الاساسية : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . ففي هذا التأكيد نفي لحقيقة كل ما ليس بواحد ، وشهادة بحقيقة الواحد ، وشهادة برسالة محمد للتذكير بهذه الحقيقة .

ولقد بنت الرسالات التوحيدية الثلاث اديانا ثلاثة ، وانشأت ثقافات وصنعت حضارات ، كان آخرها واحداثها الحضارة التي ازدهرت منذ القرن السابع الميلادي في ظل الديانة الاسلامية . ويمكننا ان ننظر الى هذه الحضارة من اية زاوية اردنا ، معجبين او منتقدين . ولكن الحقيقة التي لا يمارى فيها ، هي انها آخر محاولة حضارية قامت باسم الله . ونادت بان منطلق الانسان منه ومعاده اليه ، واستهدفت التحرر الروحي ، الذي تطلعت اليه الروح السامية ، واستشرقت الروح الانسانية .

ولا يمكن ان تفقه روح هذه الحضارة ، ولا ان تقيّم تقييما صائبا ، ولا ان تقدر التحديات التي تواجهها بها الحياة العصرية ، الا اذا فهمت حقيقتها هذه فهمًا كاملا . فنحن معها منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، تجاه حضارة تتحرك حقا او باطلا باسم الله والوحي والشرع الالهي . ونحن منذ القرن الخامس عشر مع اوربا الغربية في محاولة حضارية جديدة ، تنطلق باسم الانسان ، وتتحرك بوحي العقل ، وتنظم امرها بهدي القانون الوضعي . وليس معنى هذا ان الحضارة الاسلامية لم يكن فيها انسانيون وعقلانيون

ووضعيون . فقد كان منهم كثيرون بين الادباء والعلماء والفلاسفة والمتصوفة . ولكنهم لم يطبعوا حضارتهم بروحهم ، ولم يستطيعوا ان يغيروا طابعها الالهي . كما انه لا يعني انه ليس للحضارة الحديثة ، في نماذجها الاوربية والامريكية واللاتينية ، قديسون وزهاد ولاهوتيون ومتدينون ، ولكنهم لم يستطيعوا هم ايضا ان يغيروا من طابع حضارتهم العقلاني العلمي .

تحدي التقابل بين روحين وطابعين

ولذلك فان التحدي الاول والاكبر ، الذي تواجه به الحياة العصرية الاسلام ، هو تحدي التقابل بين روحين وطابعين : روح الاسلام الالهية وطابع حضارته الديني ، وروح الحضارة الحديثة العقلانية وطابعها العلمي . وهاتان الروحان هما في حالة صراع في نفس كل مسلم منذ ان ابتدأ التفاعل بين الحضارتين في نهاية القرن الثامن عشر . ونجمت من هذا التفاعل ازدواجية قوتية في الشخصية الاسلامية المفكرة ، ولدى الخاصة من المسلمين . فهذه الشخصية تعيش بالضرورة نسق الحياة العصري ، ولكنها تعتقد بالوراثة وتأثير البيئة نسق التفكير الديني . واما كثرة الشعب ، فانها ما تزال آنس بالنسق التقليدي منها بالنسق العصري . فنشأت عن ذلك هواتان : هوة في نفس المتفكر المسلم بين اعتقاده الديني وسلوكه الحياتي ، وهوة في المجتمع المسلم بين الخاصة المتفكرة والعامية المؤمنة .

وفي هاتين الهوتين علل كثيرة لما نعانيه من تهافت كيان في كل مجتمع من مجتمعاتنا الاسلامية من الهند الى مراكش . وما لم تنطلق الشخصية الاسلامية متحررة من هاتين الهوتين ، ومنعتة من كل ما يحوم حولها من عقد ، ومسترجعة وحدتها الذاتية الكيانية ، فان حركة سلوكها ستظل آلية ببغائية اكثر مما هي حركة روحية دافقة خالقة كما كانت في صدر الاسلام .

ولا يكفي التحرر السياسي وحده للتحرر من هاتين الهوتين ، والانعتاق من هذه العقد ؛ فانطلاق الاسلام التحرري السياسي ، منذ الحرب العالمية الاولى حتى الآن ، انطلق رائع . فلم يكن للاسلام بعد نهاية تلك الحرب سوى خمس دول مستقلة . ودوله المستقلة المشتركة الآن في الامم المتحدة خمس وعشرون . واذا قارنا قوة هذه الدول المادية بقوة الدول التي كانت مسيطرة عليها ، فاننا هنا امام معجزة تحررية . ولكن هذه المعجزة ما تزال تعترها شوائب كثيرة . فاطراف الجزيرة العربية ، وهي مهد الاسلام وموطن ثروته المادية الجديدة ، ما تزال بحاجة الى المزيد من الاستقلال . وفلسطين هي اليوم اسرايل . ولن يكون استقلال اية دولة عربية او اسلامية حقيقيا حتى تعود اسرايل فلسطين من جديد . ثم ان جميع الدول الاسلامية المستقلة واقعة في صف التخلف . فليس بينها دولة واحدة يزيد مستوى دخل الفرد فيها عن مائتي دولار . وليس بينها دولة واحدة ترفع نسبة

المتعلمين فيها عن الحسين بالمائة . وليس فيها دولة واحدة استوى نظام الحكم فيها بعد استواء عقلايين تناوبيا مستقرا . وليس بينها دولة واحدة تشارك بعد مشاركة خلافة في التقدم الحضاري والعلمي الحديث .

وهذا التخلف هو اشد خطرا بعد الاستقلال منه قبل الاستقلال . لان له قبل الاستقلال مبررات يؤخذ عليها الاستعمار ، ولكن له بعد الاستقلال علاقا قد يؤخذ عليها الاسلام . وتبدو بعد الاستقلال كل امة بما كسبت رهينة . والاجيال الجديدة التي تهولها حالة التخلف ، وتروعها وثبات مجتمعات اخرى نحو التقدم ، تتطلع لبلوغ الغاية نفسها بالاسلام او بدونه . والذي يعينها هو تحقيق التقدم المنشود ايا كانت الطريق اليه . والناذج الحية لما صنعت اجيال اخرى في اوربا وامريكا وروسيا والصين تحفزها للحاق بالركب الحضاري المتحرك باقصر واسرع مختصر ممكن . وحركة الحضارة اليوم اشبه شيء بطوفان لا عاصم منه في جبل ولا سفينة .

ولذلك فان تحدي الحياة العصرية للاسلام بعد الاستقلال هو اشد منه قبل الاستقلال . وينطبق هذا علينا نحن مسلمي لبنان ومواطنيه كما ينطبق على جميع مسلمي العالم المتخلف ومواطنيه . والتحدي اشد علينا في لبنان ، لاننا اقرب الجميع الى مواطن الحضارة الحديثة الاولى ، ولان اسرائيل مترصدة في جوارنا ، ولاننا نشارك في وطن واحد مع مواطنين اعزاء بلغوا من التقدم الحضاري الحديث ما لم نبلغه نحن بعد . ويعني هذا اننا بقدر ما نقع في طليعة التحدي ، يتوجب علينا ان نكون ايضا طليعة الرد الخلاق على هذا التحدي . ويعني هذا ان علينا ان نمتاز في نوعية الرد ، لا بالنسبة لوطننا لبنان فحسب ، او للعالم العربي كله ، ولكن علينا ان نكون القدوة فيه للاسلام ، ان لم يكن للانسان المؤمن حيثما كان .

ويتوقف هذا الرد على نظرة موضوعية للحضارة وموقف ذاتي منها . والنظرة الموضوعية للحضارة تتراوح بين رأي ابن خلدون وشبنغلر او رأي سوروكين وطويني في قدر الحضارة . فللحضارة في رأي الاولين حياة كحياة الانسان : فهي تنشأ وتعيش لفترة ما ثم تموت . فاذا جاء اجلها ماتت ككل عضوي ، كما نشأت اول الامر ككل عضوي . واذا صحت هذه النظرة ، فانتا لا نكون اكثر من شهود للحضارة الاسلامية ، وهي في النزاع الاخير من احتضارها الحتمي .

واما سوروكين وطويني ، فانها يميزان بين اطار الحضارة الاعتقادي وبنيتها المادية . والاطار الاعتقادي قابل للتجديد ، مهما كان التغير البنيوي الذي تتعرض له . والمهم هو ان يعي ابناء الحضارة حاجة اطارها الاعتقادي الى التجديد . وان تتوفر لها نخبة خلافة تستطيع احداث هذا التجديد . وهذا الوعي ممكن اليوم في ظل الحضارة الحديثة ، اكثر

مما كان في ظل اية حضارة اخرى في الماضي ، بسبب التواصل الفكري والتفاعل المادي بين جميع المجتمعات . ولذلك تستطيع الحضارة ان تنهل من ينابيعها هي ، وينابيع الآخرين الروحية والفكرية ، نهلا جديدا يساعدها على تجديد اطارها الاعتقادي وتغيير وجهتها الروحية وحياء طاقتها الخلاقة .

ونعرف جميعا ان بنية الحضارة الاسلامية التنظيمية انهارت وما تزال الى مزيد من الانهيار . فبنيتها السياسية خلافية او سلطانية . والخلافة والسلطنة زالتا من الوجود ، وحلت محلها الجمهوريات والملكيات ببنيتها القومية . وبنيتها القانونية شرعية ، والشرع لم يعد يطبق منه سوى احكام الاحوال الشخصية ، تراعى في بلاد ولا تراعى في بلاد اخرى . وبنيتها الاقتصادية اعتمدت الطاقة البشرية ، والاسلام كله يجاهد اليوم في سبيل تبني الطاقة الآلية . وبنيتها المالية ضد التسليف والتأمين بالفائدة ، وجميع الدول الاسلامية تتطلع الى النمو عن طريق هذا التسليف والتأمين . وفنون العمارة الاسلامية تسسخها في كل مكان فنون العمارة الحديثة . وسائر الفنون الاسلامية بمختلف تعبيراتها تنازعها الحياة الفنون الحديثة بمختلف صورها .

ثم ان البنية الاجتماعية الاسلامية تحتاجها الآن تغييرات اساسية لم تعرف مثلها من قبل . فقد بدا الاسلام في عهد الرسول كرسالة لتحرير المستعبد والمستضعف والمستغل والمحروم والمظلوم . واراد الاسلام ان يزول اي شكل من اشكال استغلال الانسان لاختيه الانسان . وكان المستضعفون اول من لبى الرسول ، ولبى الدعوة لدى انطلاقها . وكان اهل الجاه واليسار الدّ معارضيه . وما لبثت الفتوحات ان قلبت هذا الوضع ، وهيات للمستغلين ان يجعلوا منه اداة لتبرير استغلالهم وتوطيد سلطانهم ، بدل ان يكون كما هي حقيقته ، رسالة لتحرير المستضعفين . فازدهرت في ظل الوضع الجديد الجبرية والاستبدادية والاقطاعية والاستغلالية ، التي جاء الاسلام لتحرير الانسان منها . واصبح في المجتمع الاسلامي ذروة حاكمة مستأثرة ، تداولها العرب والفرس والبربر والاكراد والأتراك ، وقاعدة شعبية مكدة منتجة تستمر معيشتها كما هي ، كيفما تغير الحكام وتقلبت الاحداث . ولئن ضمت الجميع اخوة الهية اسلامية رائعة ، الا ان مغام هذه الاخوة كانت للقلة ، ومغارمها للكثرة . ولم تقم طبقة متوسطة ، لتصل ما بين الاثنين ، وتضييق الفروق بينها وهذه البنية الهرمية ، التي ليست من روح الاسلام في شيء ، قنهار هي ايضا الآن تحت وطأة الحضارة الحديثة . وهذه الحضارة ، سواء احببناها او كرهناها ، هي بتواصليتها المعجزة ، وصناعاتها المحتاجة دائما للسوق الاوسع ، حضارة القاعدة الشعبية المستهلكة ، بقدر ما هي حضارة الخاصة المنتجة . وقد فرضت عليها هذه التوسعية الاقتصادية ، كما فرضت عليها متطلبات التعبئة العسكرية العامة ، ان تسلم بحق الانتخاب او الاقتراع العام

وحق التعليم العام وحق التنظيم والتمثيل العمالي .

وهذه التغييرات الأساسية كلها تقوض الآن طوعا او كرها البنية الاسلامية التقليدية ، وتقيم مقامها البنية العصرية ، وتحرك المستضعفين في الارض في طلب مكانهم الواجب لهم في حياة المجتمع . وتعطي المتوسطين دورا قياديا وتنظيميا لم يكن لهم من قبل . والسؤال التاريخي الآن ، هو ما اذا كان الاطار الاعتقادي الاسلامي لاحقا البنية المتهافنة عاجلا او آجلا ، او انه قادر على التجديد بحيث يصبح هو ايضا الاطار الحديث للبنية الحديثة . وقد يبدو هذا السؤال غريبا بعض الشيء ، لان الاسلام اتيح له ، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن ، مجددون ومصلحون امثال محمد بن عبد الوهاب والامير عبد القادر الجزائري والافغاني ومحمد عبده والسنوسي والكواكبي ومحمد اقبال وزيا جوكلب ومحمد خالد محمد ومالك بن النبي وغيرهم . وقد حاول جميع هؤلاء تفسير تعاليم الاسلام وفقا لاحواله الجديدة ، واجتهدوا في تكييفها على درجات متفاوتة حسب متطلبات الحياة الحديثة .

تجديد في الاطار الاعتقادي

وكان من نتائج اجتهاداتهم تشجيع الاسلام على الاتجاه منذ القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية نحو الديمقراطية الليبرالية ، والاتجاه منذ الفترة التي تلت تلك الحرب نحو الديمقراطية الاشتراكية . فاصبحت اكثر الدول الاسلامية تتراوح بين الاتجاهين ، آخذة « بديمقراطية موجة » في اندونيسيا ، و « ديمقراطية اساسية » في الباكستان ، و « ديمقراطية اشتراكية » في الجمهورية العربية المتحدة والجزائر وسوريا والعراق ، و « ديمقراطية سلفية » في السعودية ، و « ديمقراطية كالية » في تركيا ، و « ديمقراطية ليبرالية » متنوعة الصور في البلاد الاخرى . وتقاتدت حتى الآن نهجا آخر هو « الديمقراطية الماركسية او الشعبية » . والحجة في ذلك هي توافق الاسلام مع الليبرالية والاشتراكية ، وتناقضه مع الماركسية .

ولا ريب في ان تبني الليبرالية فالاشتراكية يعني بعض التجديد في الاطار الاعتقادي الاسلامي . ولكنه تجديد جزئي وشكلي اكثر مما هو كلي وجوهري . وما يزال هذا التجديد دون تحقيق الغايات التقدمية المنشودة . فهل يعني ذلك انه لا بد من التجديد الكلي ؟ ان مثلي روسيا والصين هما مثلا التجديد الكلي . فقد استبدلتا اطارهما العقائدي استبدالا كليا بايديولوجية علمية حديثة ، لتشارك مشاركة خلاقة في التقدم الحضاري الحديث . ومثل الهند ، ما يزال كمثل الاسلام ، تسلك سبيل التجدد الجزئي ، ولكنها ما تزال دون المشاركة المنشودة . واليابان سلكت السبيل نفسه ، وهي الآن في طليعة

التقدم الصناعي . فإي مثل يستدعي الاسلام ؟ المثل الروسي او الصيني او الهندي او الياباني ؟ او انه سيكون له مثله الفريد الذي يختلف عن كل ما سبق ؟ وما هو شأن الاسلام وشأن المثل الاوربي الغربي او المثل الشالي امريكي ؟

ان لهذه الامثلة والناذج والتجارب التقدمية ما تتفق فيه وما تختلف فيه . وقد تعودنا ان نقول باننا نريد للاسلام ان يتوسط بينها ، لان الله جعلنا امة وسطا « لنكون شهداء على الناس » . ولان الرسول علمنا ان خير الامور الوسط ، ولان موقعنا الجغرافي متوسط ، ولان تجربتنا الحضارية تجربة توسط ما بين الشرق والغرب ، او ما بين شرقي آسيا وغربي اوربا ، او ما بين العقلانية اليونانية الغربية وما بين الحلولية الشرقية الاسيوية . وقد آن لنا ان نؤكد على التوسط الخلاق لا التوسط المقلد او الملفق ، اذا شئنا ان نصون حريتنا وعبقريتنا واصالتنا وطاقاتنا .

ويعني هذا ان الاسلام متأثر بحكم التواصل الحضاري بجميع هذه النماذج ، دون ان يصبح ايا منها . والتأثر الواعي هو غير المحاكاة العمياء . ويقضي علينا هذا النوع الخلاق من التأثير بفهم حقائق هذه النماذج فهما كاملا ، وتبين خصائصها المتفقة والمختلفة . واهم ما يمكن ان نلم به عنها هنا ، هو انها كلها تجارب انسانية ، تعبر عن اعتماد الانسان طريق الخطأ والصواب الى الغاية التي ارادها له الله . وتلتقي كلها الآن في اعتماد ما تعتبره المنهج العلمي الانمائي للتقدم ، وتستهدف من هذا التقدم تحسين وتكثير معدل انتاجيتها ، وترمي منه الى رفع المستوى المعاشي لشعوبها ، وتوزيع حاصل الانتاج توزيعا عادلا بين مواطنيها . وتختلف في طرق هذا التقدم وغاياته الاخيرة اختلاف مبادئها التراثية ، واختلاف مواقيت انطلاقها . فالسابقون الى الانطلاق يعتمدون التنوعية العقائدية والتنظيمية ، والسبيل الاقناعي التطوري للتغيير ، ويستمسكون بالحرية الفردية والملكية الفردية . والمستجدون في الانطلاق يعتمدون التوحيد العقائدي والتنظيمي ، ويسلكون النهج الثوري العنفي للتغيير ، ويضحون بالحرية الفردية والملكية الفردية في سبيل الحرية الجماعية والملكية الجماعية . واشد هذه النماذج في ثورته الآن هو النموذج الصيني ، بسبب جده انطلاقه ، وبتأثير المראה التي خلفها ما عانا من امتهان الغير وحرمان الماضي . ولكن توازن الرعب النووي يفرض عليها كلها بعض الاعتدال في نهجها ، لان اختصار الانسان لم يعد في ظلكه بين نظام وآخر ، بل بين البقاء او الفناء .

ونحن على يقين ان سبيل الاسلام التقدمي سبيل اقناعي لا قسري . وان القسر في الاسلام ضرورة عابرة . كما يبدو ذلك في قوله تعالى : « لا اكراه في الدين » ، او في قوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . والاسلام يقر التنوعية العقائدية والتنظيمية : « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » ، ويتخذ حرية الذات البشرية

ومسؤوليتها قاعدا للانطلاق : « كل نفس بما كسبت رهينة » . والاصل في الاشياء الاباحة . ويصون الاسلام الملكية الفردية ، ويجعل منها وظيفة اجتماعية : « وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . ويرى الاسلام الدولة اداة عارضة لسعادة الفرد والجماعة ، لا غاية في ذاتها . ويرى الانسان الفرد مع الجماعة والجماعة مع الانسان والفرد ، موازنا بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات موازنة تحفظ للجماعة تماسكها واخوتها ، وتصون للفرد حريته وعبقريته الخلاقة .

وبديهي ان هذا التحليل هو تحليل لكل نموذج في سياقه الخاص ، اكثر مما هو تحليل لها في السياق الحضاري العام الجامع لها كلها . كما ان ملاحظتنا الاسلامية عليها ، هي ملاحظات اجتهادات مبدئية شخصية . ولذلك يتعين علينا ان نستعرض ردود الفعل الاسلامية العامة للتحديات الحضارية المعاصرة في سياقها العقلي والسياسي والاقتصادي والثقافي ، لنخلص منها الى عاقبة هذا الالتقاء بين قديمنا المتجدد وجديدهم المتغير .

ونعني بالسياق العقلي رفض الحتمية التاريخية ، روحية كانت او مادية ، والاعتراف بقدرة الانسان اي الاسلام على الاختيار . والسياق السياسي يفترض صيرورة هذه القدرة حقا يؤكد الاستقلال ، وتصونه المبادئ التي يقوم عليها المجتمع الدولي ، ويعزز توازن الرعب النووي القائم بين الفريقين اللذين يتنازعان الآن السيادة على العالم . والسياق الاقتصادي يفترض توفر الموارد الانسانية والمادية للاسلام التي تمكنه من بلوغ المستوى الانمائي والمعاشي المنشود . والسياق الثقافي ، وهو الاعتد ، هو سياق ما ظهر حتى الآن من ردود فعل فكرية اسلامية للتحدي الحضاري الحديث .

ويمكن ايجاز ردود الفعل هذه بالاتجاهات الاربعة الرئيسية التالية : اولا ، الاتجاه المحافظ الذي لا يرى في الحياة العصرية الحديثة الا الخطر على النسق الحياتي الاسلامي ، وعلى مثالية الاسلام وكرامته ووحده ؛ ثانيا ، الاتجاه التوسطي الذي يرى في الحياة العصرية خيرا وشرا ، ويوصي بالاقبال على خيرا وتقادي شرا ، وينادي بالتوفيق بين خيرا وخير الاسلام ؛ ثالثا ، الاتجاه المسترسل مع الحياة العصرية ، الذي يرى ان قوانين حركتها هي احدث قوانين حركة الانسان ، ولذلك يرى الاخذ بهذه القوانين اخذا كليا والاكتفاء بالاسلام كعقيدة شخصية ضمنية تصل ما بين الاسلام ورب ؛ رابعا ، الاتجاه المتجاوز لهذه المواقف الثلاثة ، الذي يرى ان تطور حركة التاريخ نسخت الاسلام واي دين آخر نسخا نهائيا ، ولذلك لا بد من اعتماد موقف علمي عقلاني تجاه الحياة العصرية ، وهي احدث وجه للحياة انتهى اليه تطور الانسان التاريخي على الارض . ومقولات هذا التفكير هي التاريخ والوجود والعقل والمجتمع والانسان . واما مقولات الله والجوهر والروح والخلود فهي في نظر هذا الاتجاه غير ذات موضوع .

هذه الحضارة حضارتنا نحن

وهذه اتجاهات رئيسية اربعة ، نادي بها مفكرون او مصلحون او ثوريون مسلمون منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن . وكان لها فعلها في حياتنا النظرية والعملية . وكان لها تأثيرها المباشر او غير المباشر في صراعنا مع الحياة العصرية ، وتفاعلنا مع الحضارة الحديثة . ونحن نعتقد ان هذه المواقف الاربعة هي دون ما يلزمه تطور الانسان الحضاري الراهن . وذلك لان هذه المواقف كانت سائدة في الوقت الذي كان فيه للحضارة الحديثة ابعاد قومية او جنسية او قارية او طبقية محدودة . ولكن الحضارة لا تتخطى الآن هذه الابعاد فحسب ، بل انها تتخطى ابعادها الارضية مرتادة ابعادا كونية جديدة . ولذلك فهي الآن حضارة كل انسان ، احب او كره . وهي حضارة المسلم بقدر ما هي حضارة المسيحي ، وحضارة الافريقي بقدر ما هي حضارة الاوربي ، سواء اتم وعينا لهذه الحقيقة ام لم يتم بعد . انها حضارة كل انسان بالقوة ، وما يزال على عقله ، وارادته وامكاناته ، ان يصيرها حضارته بالفعل .

وليس بصحيح ان مقومات هذه الحضارة المادية او العلمية او التكنولوجية هي مقومات عامة ، وان مقوماتها العقائدية هي مقومات خاصة . بل ان لجميع هذه المقومات في نفس الوقت عموميتها وخصوصيتها . فالجامعة والمختبر والمصنع والآلة والقاطرة والسيارة والطائرة والصاروخ هي كلها من بنات الحضارة الحديثة . كما ان العلمية والعقلانية والجمالية والقومية والديمقراطية والليبرالية والاشتراكية والماركسية والفاشية والنازية هي ايضا من بناتها . والناس ، على اختلاف بيئاتهم واديانهم وثقافتهم ، يتنافسون ، كل على طريقته ، في طلب ثمرات هذه الحضارة الايدولوجية ، مثلما يتنافسون في طلب ثمراتها التكنولوجية . ويؤكد هذا ان هذه الحضارة بلغت اليوم درجة من العموم لم تبلغها اية حضارة من قبل . ونحن المسلمين اولى الجميع بان نرى هذه الحضارة حضارتنا نحن . لان بناتها الاوائل يعتبرونها وليدة الروح المسيحية والعقلانية اليونانية والقانونية الرومانية في الروح الاوربية المتفتحة الثائرة . والروح المسيحية هي ابنة الوجدانية السامية ، التي ولد منها الاسلام . وكنا نحن اول من ادخل العقلانية اليونانية الى اوربا عن طريق الرشدية اللاتينية ، اي بواسطة الاتباع الاوربيين لفيلسوفنا ابن رشد . والروح التجريبية العلمية الاوربية كان رائدها الاول روجر بيكون ، وهو رسول التجريبية الاسلامية العلمية الى اوربا .

والفاصل الحقيقي بيننا وبين الحضارة الحديثة ليس فاصل الاجزاء المكونة ، بل فاصل الكل المتكون . فقد التقت عندنا الوجدانية السامية والعقلانية اليونانية وعلمية الشرق الادنى وحلولية الهند ، فكان نتاجها حضارة الهية الروح وخلقية النزعة . والتقت الوجدانية السامية والعقلانية اليونانية والقانونية الرومانية في النفس الاوربية ، فكان نتاجها حضارة

علمية الروح وجمالية النزعة . فما هو مصير التقاء هذين الكليتين الحضاريين في النفس الاسلامية والحياة الاسلامية المعاصرة ؟ اهو التفاني المميت ، او التعايش المتوتر ، او التآلف التلفيقي ، او التكامل التجديدي الخلاق ؟

يبدو لنا الموقف الحضاري الانساني الراهن على ضوء معجزة التواصل العصري اقرب الى التكامل التجديدي الخلاق منه الى اي موقف آخر . ويعني هذا ان على الاسلام ، وهو يحدد بنيته الحضارية ، ان يعاود اكتشاف روحه وجوهره الحقيقيين . وان على الحضارة الحديثة ، وهي تنشر بنيتها العصرية في العالم كله ، ان تجدد روحها بالتفاعل مع الروح الحقيقية لكل حضارة تصادفها في طريقها . فتنبت عن ذلك روح حضارية جديدة ، ليست بشرقية ولا غربية ، ولكنها روح الهية انسانية . وينشأ جو حضاري جديد يلتقي فيه الله والانسان من جديد بحرية ومحبة . وهذا هو اللقاء الذي اراده الاسلام ، وهذه هي الروح التي استهدفها ، ونشد تحقيقها في حضارته ، وان لم يبلغ منها كل ما اراد . فالانسان هو في القرآن خليفة الله على الارض ؛ وهو مخلوق في احسن تقويم ؛ وهو المكرم على العالمين ؛ وهو الكائن الوحيد الحر في ان يختار الاعتقاد الذي يشاء ؛ وهو الوحيد الذي يستطيع ان يبلغ بطبيعته وعقله وحواسه الله ، اي الحقيقة . وما الوحي الا تذكرة له ان خذلته الذاكرة ، او هداية له ان اخطأته الحواس ، او اضله العقل . وهذا الوحي هو دعوة للانسان للبحث اللانهائي عن الحقيقة . وكل ما يبدو له منها يجب ان يكون حافزا له لطلب المزيد . لانه لم يؤت من العلم الا قليلا . والحقيقة ينشدها الانسان في معجزات الخلق الالهي ، اي في نفسه وتاريخه وآيات الطبيعة الخارقة . وكل هذه الآيات براها الله لخير الانسان وسعادته . والانسان اخ لكل انسان ، لان الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة . والانسان يواصل كل انسان ، ويحاور من يخالفه في الرأي والمعتقد بالتي هي احسن . ويدفع حتى عدوه بالمحبة ، ليجعل منه وليا حميا . وهو متواصل مع كل انسان آخر بالحق والصبر ، ومتعاون معه في سبيل حياة افضل لكل انسان في كل زمان وكل مكان . وهو رهين بما كسب ، لانه لا تزر وازرة وزر اخرى . وللمرأة انسانية الرجل ، ولها مثل الذي عليها بالمعروف ؛ وهي مثله تُنفخت فيها روح الله ؛ وهي مثله تجاهد جهادا لا ينتهي ابدا لتحسين النفس وتقدم الحياة ، لان « الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ، ولان هذا هو الجهاد الانساني الاكبر . والعمل لا السطوة هو صانع الحياة الاولى ، وهو سبيل لتأنيس الطبيعة ، ولتحقيق انسانيته ، ولتوعية ذاته ، اي للاقتراب من الله . هذه هي ملامح الصورة القرآنية للانسان . وهي صورة لم تجسدها بعد الحضارة الحديثة ولا الحضارة الاسلامية ، ولا اية حضارة قبلها . ولذلك فهي ما تزال صورة مثالية للمستقبل . ووجودها ينبها الى وظيفة الدين الرئيسية ، وهي ان يتحدانا برؤى ومثل

عليها الهية وانسانية نقارها اكثر مما نحققها تحقيقا كاملا . وهذه الصورة تكمل ما في الحضارة الحديثة والحضارات الاخرى التي تتفاعل معها من صور اخرى للانسان . ونحن مطالبون الهيا بان نجسد هذه الصورة في جميع تشريعاتنا وتنظيماتنا الجديدة . ونحن مدعوون انسانيا للعمل لانتصار هذه الصورة في كل تشريع وتنظيم انساني .

ويعني هذا ان الانسان الذي نتطلع اليه ، ويفرض علينا القرآن ان ننشده في جو حضاري جديد ، هو : اولاً ، انسان يؤمن بالله ايمانا عميقا وخلاقا ، متخذاً اياه مثله الاعلى للكمال ، وملتزمًا بان تكون حياته معراجاً لهذا الكمال ؛ ثانياً ، انسان يؤمن بالحقيقة ، باحثاً بحثاً لا نهائياً عنها كضالة منشودة ، بنفس تفتحه لما اهتدى اليه الآخرون من طرق متنوعة للاقتراب منها ؛ ثالثاً ، انسان تغمره المحبة علاقته بالكون وبكل انسان آخر ؛ رابعاً ، انسان يؤمن بحريته وحرية كل انسان ، ويصون كرامته وكرامة كل انسان ، ويقدس حقه في الحياة وحق كل انسان ؛ خامساً ، انسان يؤمن بالعقل ايمانه بالله ، ويشعر بطمأنينة التكامل لا بقلق التنازع بين ايمانه وعقله ؛ سادساً ، انسان يؤمن بمسؤولية الانسان في اكتشاف كونه وتنظيم مجتمعه ، ويوقن ان هذه المسؤولية هي امانة الله الكبرى للانسان ؛ سابعاً ، انسان يؤمن بجرمة الذات الانسانية الفردية ، ويعتقد بان غاية كل تنظيم اجتماعي تفتيح امكانات هذه الذات الخيرة . والمبدعة ؛ ثامناً ، انسان يؤمن بان الانسانية كلها يجب ان تكون ديمقراطية روحية كبرى ، تسود فيها المحبة والحرية والعدالة ، ويلتزم بان يكون وطنه نموذجاً حياً لهذه الديمقراطية . وقوام هذا الايمان قول الرسول : « الخلق كلهم عيال الله ، واحبهم اليه انفعهم لعياله » .

ويقضي التدرج في المسؤولية على المسلم ان يكون اولاً اسوة بالالتزام بهذه الصورة القرآنية للانسان في وطنه . ويقضي عليه بان يبذل كل جهد لازم لتجسيم هذه الصورة في سلوكه الفردي والجماعي ، وفي مؤسسات مجتمعه الخاصة والعامة . فليس الاسلام تعايشاً انعزالياً ، ولكنه تواصل وتعاون وتضامن في السراء والضراء . وهو تواصل ملتزم بخير كل عربي ، لانه ملتزم بخير كل انسان .

وهذا الالتزام الروحي التواصل هو التزام بتحسين نسق الحياة الانساني . ومسؤولية اللبناني المسلم ان يكون طليعة هذا التحسين لخيره وخير مواطنيه كافة . ومسؤوليته الاولى ان يكون نموذج التفاني والتضحية والكفاءة والجرأة البناء في وطنه . فيجسم بذلك الروح الاسلامية الحققة ، ويتحول الى رائد للالتقاء المنشود بين روح الله وروح الانسان في جو حضاري جديد . ومن اولى منه ، وهو ابن حضارة الوحي وربيب حضارة العقل ، ان يكون مثل هذا الرائد ؟